دلالة الأمثال بين أثر السّياق اللّسانيّ والمقام
حكاية "الأسد والغوّاص" أنموذجا

د/ حمدي عبيد
كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة
القيروان / تونس

" ذُكر أنّ رجلا كانت له امرأة وكانت سيّئة الأدب. فجاء يوما من الأيّام فوجد المنخل على فراشه فتعلّق بالوتد فقالت له امرأته: ما هذا؟ فقال: إذا كان ذلك الموضع موضع المنخل، كان هذا الموضع موضعي أنا"الأسد والغوّاص(1)

ملخص

يتناول هذا البحث بالدراسة أحد مسارات تشكّل الدلالة، نقصد السّياق لا بوصفه معطى جاهزا وإنّما من حيث هو أثر تُسَيِّجُهُ البنية اللّسانيّة سبقا وارتدادا. وقد يتخطّى هذا الأثر الجوار اللّسانيّ، فيشمل الأثر المقاميّ والباعث التلفظيّ أو بالأحرى الحقل الأدبيّ الّذي يؤمّن في صمت انتظام الخطابات الأدبيّة ويَحْفَظُ تميّز بعضها من بعض، وفق أساليب الحياة الّتي تجعل للحكّام أدبا خاصّا بهم يخالف أدب الوزراء والقضاة والحكماء. ويمكن لهذا الأثر أن يشمل البنى التصوريّة والعرفانيّة الساكنة في الذهن.

الكلمات المفتاحية: السياق - الأثر السياقيّ - المقام - الدلالة – الموجّه الدلاليّ – الباعث التلفّظيّ - الجوار العرفاني

تمهيد عام:

لئن أفلحت المناويل التفسيريّة في وصف كلّ ما هو عام ومشترك بين القصص فإنّها قصرت عن وصف كلّ ما هو خاص وفريد وتنكّبت تقديم الإجابة عن سؤال: لم القصّ؟ وهاهنا يجيء دور المناويل التأويليّة في استقطار الإمكانات القصوى للفهم بتخطّي سؤال الشعريّة " كيف تصنع القصص؟" أمّا المحاور الّتي تجرّد لهذا المنحى فتنعقد على عدّة مفاهيم إجرائيّة من مثل السياق والدائرة التأوليّة والمربّع السيميائي... ويعدّ السياق أهمّ المحاور التأويليّة لأنّه يؤلّف بين عدّة مفاهيم إجرائيّة. أضف إلى ذلك أنّه تقوم بينه وبين التأويل صلات يمكن اختزالها في الطابع الافتراضيّ لكليهما.

الأطروحة:

لمّا كانت وجهة النظر هي الّتي تخلق الموضوع، اخترنا الاشتغال على الآثار السياقيّةEffets contextuelles الّتي تتوزّع على أثر تسيّجه البنية اللّسانيّة سبقا وارتدادا وأثر سياقيّ يجاوز عنف الأنساق المغلقة نحو مستويات التلفّظ والحقل الأدبيّ المؤسسيّ الّذي يؤمّن في صمت انتظام الخطابات الأدبيّة. ولمّا كانت نسبة الأثر تقتضي محلاّ يحمل وسمه انصرفنا باتّجاه دراسة أثر السياق اللّسانيّ والمقاميّ في توجيه دلالة الأمثال الخرافيّة. والّذي حفزنا على ذلك أيضا هو ما بين النصّ الأدبيّ والأثر السيّاقيّ عموما من تعالق. فهو سلسلة من الملفوظات المكتوبة الّتي تتابع وفق مجموعة من العلاقات التركيبيّة والإعرابيّة الّتي تحكمها قوانين بنيويّة شاملة. والنصّ

الأدبيّ أيضا، مجموعة من المكوّنات غير اللّسانيّة الّتي تساهم في حدثان إنتاجه. وممّا يترتّب على هذا التشابك، أنّ دلالته ليست بالمعطى الجاهز، وإنّما هي قيمة ديناميكيّة تضاف إلى النصّ من خلال التفاعل بين المنشئ والقارئ اللّذين يمكن أن تحمل البنى اللّسانيّة أثر تفاعلهما تلفّظا. لهذا الاعتبار عدّت الدلالة كيانا معقّدا تنحته مستويات سياقيّة مختلفة. وهو ما يتعارض مع متصوّر الكلاسيكيّ للدلالة باعتبارها تأليفا بين المتصوّرات الذهنيّة والدوال بموجب التواضع الّذي يفرد لكلّ وحدة لسانيّة قسما مجرّدا من المعاني. ولّما كان هذا القسم المجرّد غير متوافر لكلّ المتقبّلين بذات الدرجة من الاستواء وكانت علاقة التواضع قاصرة عن استفراغ معاني النصّ ودلالاته القريبة والبعيدة وكانت الدلالة وثيقة الصلة بالملفوظ قبل الكلمات، استوجب فهم النصّ، البحث في أثار السياق اللسانيّ وآثار السياق المقاميّ المداخلين لنسيجه النصيّ.

يفترض البحث في الآثار السياقيّة موصولة بالدلالة في بعدها الديناميكيّ ومشدودة إلى ما بين أعوان التلفّظ من تفاعل، القطع مع التصوّرات الشائعة الّتي تعدّ السياق معطى جاهزا يسبق مسار الفهم. إذن نسبة الأثر إلى السياق والمقام تعني أنّه يتشكّل آن الاستقبال والمعالجة اللّغويّة، أي أنّه نتاج القراءة وبناء الفرضيّات الّتي تسايّر نشاط الفهم. وتتّضح لنا في ضوء هذا التصوّر ملامح التأويل الّذي نصادر عليه فهو حركة ذهنيّة تبعث على بناء الفرضيّات آن استقبال معالجة المعطيّات اللّسانيّة والنصيّة لأنّ السياق يجاوز المقام والمحيط اللّسانيّ إلى محيط آخر هو المحيط العرفانيّ Environnement cognitif.

أمّا الّذي يبرّر هذه الوجهة في تناول السياق والمقام، فهو استقامة النصّ الأدبيّ في تحليل الخطاب عالما منفتحا لا يُكتفي فيه بما ينشأ بين عناصره

من علاقات وإحالات قريبة أو بعيدة، وإنّما تمدُّ إلى خارج النصّ علّنا نظفر بالاستراتيجيات الّتي سمحت له بالاندراج في الحقل الأدبيّ وأضفت الشرعيّة على الأديب ومنحته حقّ الكتابة والرواية. ومن ثمّ نتمكّن من توسيع دائرة التأويل. ولا يفهمنّ من كلامنا هذا أنّ السياق الّذي نعتزم دراسته هو السيّاق الّذي تتجلّى ملامحه وآثاره الدلاليّة من جهة الاستقبال دون البثّ لأنّ الأثر السياقيّ يرتسم أيضا في اختيارات الذات المتلفّظة آن التبادل.

المدوّنة

انتخبنا كتاب "الأسد والغواص" مدوّنة لاختبار دور أثر السيّاق اللّسانيّ والمقام في الفهم والتأويل لعدة اعتبارات موصولة بسؤال المعنى حتّى أنّ مؤلّفه يدعونا منذ الصفحة الأولى إلى إعمال التأويل، ناهيك أنّه يعدّ واحدا من تلك الأعمال الأدبيّة الّتي تلتهم آباءها رافضة الانتساب إلى أب بعينه، ممّا يجعل فهمه وتدبّر معانيه أمرا محفوفا بالأخطار والمحاذير، خاصّة أنّ نسبة العمل الأدبيّ إلى أديب بعينه له حساسيته الخاصّة وأسلوبه المميّز، يوجّه الفهم والتأويل. ولا يقف حرج قراءة هذا الأثر الأدبيّ عند هذا الحدّ، وإنّما يمتدّ إلى مسألة أخرى تزيد في غموض المعاني المقصودة بالقول فيه. وتفصيل ذلك أنّ عتباته تفصح عن انتمائه إلى أدب نصيحة الملوك (مرايا الأمراء). والنصيحة في هذا الضرب من المصنّفات لا يُتوجّه بها إلى العموم، وإنّما إلى نوع خاصّ من القرّاء هم أولو الأمر من الملوك والسّلاطين. وإذا كانت النصيحة توجّه إلى ذوي الشأن، صار من الضروريّ إخراجها مخرجا سريّا لأنّ سريّتها أحزم في الرأيّ وأجدر في السّلامة. وهو ما يبرّر اتّخاذ الحيوان قناعا يحجبها ويسوّغ للانفتاح التأويل.

المقاربة

يدعونا الجمع بين السياق والتأويل إلى توخّي مقاربة تنأى من جهة أولى عن المنحى النفسيّ الّذي يعنى عادة برصد العلاقات غير المبرّرة بين الظواهر النصيّة والدوافع الكامنة وراء نشأتها، وهو ما نجده في المقاربتين النفسيّة والأسلوبيّة المتأثّرتين بالاتجاه الرومنطيقيّ الّذي يعلي من شأن فرادة الأديب، وتبتعد مقاربتنا هذه من جهة ثانية عن المقاربة البنيويّة الّتي تفكّك الخطاب إلى وحدات لغويّة وبنيويّة بحثا عن منطق انتظامها ووصفا لنسقها المغلق. إلاّ أنّنا لمّا نجمع بين السيّاق والتأويل يتّضح لنا أفق مقاربة أخرى لا تختزل السياق في العصر أو تجربة المبدع ولا تجعل النصّ انعكاسا لهما على نحو آليّ ساذج ولا تعقد ما يشبه المناسبة الحدسيّة بين بنية الأثر وبنية المجتمع على النحو الّذي نطالعه في المنهج الاجتماعيّ لدى لوسيان قولدمان حيث حوّل علاقة الأثر الأدبيّ بالفرد إلى علاقته بالمجموعة متأثرا ببعض المقولات الماركسيّة الّتي ترى أنّ الموضوع الحقيقي للفكر والأدب هو المجموعة(Goldman, L, 1976: 339- 342). بهذا الشكل ينخرط بنا التأليف بين السيّاق والتأويل في مشروع الخروج بالدرس النقديّ من تبعات اقتداء مناهج البحث في العلوم الإنسانيّة بمناهج البحث في العلوم التجريبيّة والعلوم الصحيحة. فمن المفارقة أن يطبّق الباحث في الإنسانيات ذات المناهج المسلّطة على الظواهر الطبيعيّة. فالظاهرة الإنسانية تقتضي تقديم الفهم على التفسير. وهو ما يبرّر تعدّد المقاربات التأويليّة التي توزّعت بين فلسفيّة وتاريخيّة وفينومولوجيّة وسيميائيّة وتأويليّة وانفتحت على العديد من العلوم والمقاربات. وذلك للظفر بالإمكانات القصوى للفهم (Grodin, J, 1993: 180).

ولمّا كانت الحقيقة في هذا الضرب من القصّ لا تعرض إلاّ محتجبة ولا تظهر إلاّ وقد لفتها الأقنعة وكان المعنى في القول الاستعاريّ مشروطا

بالسيّاق وكان " الأسد والغوّاص" من جنس المصنّفات المجهولة المؤلّف, عقدنا العزم على دراسة السياق علّنا نضع حدا لسريّة دلالة هذا الأثر ونتعرّف مقاصده القريبة والبعيدة. ونشير في هذا المستوى المنهجيّ إلى أنّ معاني " الأسد الغوّاص" القريبة والبعيدة ، تقتضي منّا أن نبحث في السياق من زاوية نظر خاصّة تحاصر السيّاق من جهة آثاره الّتي ترتسم من خلال نشاط الفهم من حيث هو مسار ديناميكيّ حيويّ منفتح على بناء الفرضيات تدعيما وتعديلا. ولعلّه من المفيد أن نذكر أنّنا نعتزم التركيز على ما للعلاقات المنطقيّة اللّسانيّة كالاقتضاء Présuposition والاستلزام Implication (2) من دور في تشكيل الآثار السياقيّة باعتبارها مناط الإفادة الّتي يشترطها كلّ سياق. إذن الآثار السياقيّة الّتي نستهدفها بالدراسة هي تلك الّتي توجه نشاط القراءة وتوجّه حركيّة التأويل وديناميكيّة بناء المعنى([3]) أوليس السيّاق هو " كلّ ما يحتاجه القارئ ليفهم ما قيل أو يقيّم حصيلة ما فهمه" (Armengaud, L,1985: p6). وتوخينا في ضوء هذه الرؤية الآخذة بأسباب نشاط الفهم وما يلفّه من لطائف وتعقيدات، مقاربة نجاوز نحو الجملة فتقطع النصّ جيئة وذهابا بين داخله وخارجه، بين مكوّناته اللّسانيّة وغير اللّسانيّة لاسيّما أنّ اللّسانيات لا تمتلك الكفاءة الشاملة لمعالجة قضايا الخطاب، باعتباره جملة الوسائل الشفويّة والمكتوبة الّتي بواسطتها يعبّر المتخاطبون عن مواقفهم العقائديّة (باسل، حاتم، 1998: 392).

مفاصل العمل:

أسلمنا تمييز الآثار السياقيّة من الأثار المقاميّة على ما بينهما من تعالق إلى توزيع العمل على عنصرين كبيرين. أمّا العنصر الأوّل فمخصّص لتدبّر أثر المكوّنات غير اللّغويّة الّتي تجاوز المفهوم الديسوسوري للدليل اللّساني في توجيه دلالة مثل الأسد والغوّاص برمّته. أمّا العنصر الثاني فمداره محاصرة

أثر الجوار اللّسانيّ في توجيه دلالة الأمثال. يعني هذا أنّ وحدة المعالجة في هذا العنصر تتألّف من الحكاية المثليّة ومحيطها اللّسانيّ سبقا وارتدادا. ولمّا كانت وحدات المعالجة في عملنا تجاوز الكلمة والجملة نحو المقطع والباب أو مجموعة من الأبواب انصرفت همّتنا إلى الأخذ بأسباب تحليل الخطاب لرصد وجوه التفاعل بين الوحدات النصيّة بوصفها عملا تلفظيّا Acte d'énonciation يخلّف أثرا دلاليّا يوجه دلالة الأمثال على نحو مخصوص. وبفضل هذا التصوّر نقدر على الاهتداء إلى ما يمكن أن يتوافر عليه السياق من بعد حواريّ يسم الدلالة بطابع ديناميكيّ تبطل معه أن تكون معطى جاهزا. وسبيلنا إلى تدبّر هذا الأمر هو دراسة الاقتضاءات ومسارات بنائها والمواضعات الطرازيّة والعمليّة.

من الأهميّة بمنزلة أن نشير إلى أنّ الفصل بين الأثرين السياقيين لا يتعدى الاختيار المنهجيّ لأنّ السيّاق الموجّه للفهم وبناء المعاني يجاوز الجوار اللّسانيّ نحو الجوار العرفانيّL'environnement cognitif . وبهذا الشكل نكون قد عقدنا العزم على الجمع بين دراسة أشكال السيّاق الموجهة لدلالة الأمثال وشكلنة الأنحاء المسؤولة عن إنتاج الآثار السياقيّة.

إذن فيم يتمثّل دور الآثار السياقيّة في هتك أسرار أمثال حكاية الأسد والغوّاص؟ وهل من الممكن أن نميّز بين الآثار السيّاقيّة حسب كفايتها التأوليّة وقدرة الواحد منها على رسم مسارات التأويل في جنس أدبيّ يتّخذ من الحيوان قناعا لبناء المعنى وستره في آن؟

1 ـــ الأثر المقاميّ موجّها دلاليّا

إنّ ما يغرينا بدارسة أثر المقام في توجيه دلالة مثل" الأسد والغوّاص" هو ما للمقام من دور في تعقّل المسار النشوئيّ للنصّ الأدبيّ لاسيّما إذا كان مجهول المؤلّف. إلاّ أنّ الأمر لا يخلو من صعوبات حتّى أنّ وضع نظريّة تستوفي شروطه

بات من المطالب العزيزة بسبب انفتاح المقام على عناصر متشعّبة. لكن مهما يكن من أمر هذه الصعوبة فإنّنا لا نعدم توافر الدرس النقديّ الحديث على تعريفات تعيّن عناصر المقام. وحسبنا أن نستحضر في هذا السيّاق التمهيدي ذلك التمييز الشائع بين المقام والسيّاق على قاعدة اللّسانيّ والخارج - لسانيّ L'extralinguistique. ويعني هذا التمييز أنّ المقام يتألّف من الوحدات غير اللّغويّة الّتي تحضر بمعزل عن عمليّة التلفظ ذاتها. أمّا السياق فجوار لسانيّ يستثمر آن عمليّة القول والإنتاج والاستقبال. وبسبب هذا التمييز أُقصي المقام من حقل الدراسات اللسانيّة. من ذلك أنّ بلومفيلد Bloomfield ميّز في تحديده بين المثيرStimulus (الحدث المنجز قبل عمليّة القول) والقول (القول ذاته)Parole والاستجابةréaction (الحدث المنجز بعد عمليّة القول)(Bloomfield, L , 1970: 2). ولمّا كان أمر المقام على هذا النحو أُخرج من حيّز الدراسة اللّغويّة وازدادت الهوّة اتّساعا بينه وبين الدرس اللسانيّ لاسيّما عند إقحام العناصر النفسيّة والذهنيّة في وصف الدلالة.واحتج بلومفيلد بالصفاء المنهجيّ معتبرا أنّ كلّ ما هو نفسيّ أو اجتماعيّ يحرّف البحث اللّسانيّ(4). ولم تكن الدراسات الأدبيّة بمعزل عن هذه التصوّر خاصّة الآخذة بأسباب التحليل البنيويّ.

وعلى قيمة هذا التمييز يظلّ مبدأ الإفادة La pertinence محكّا حاسما لانتقاء مكوّن سياقيّ أو مقاميّ دون آخر، إذ لا معنى لأيّ منهما ما لم يخلّف أثرا دلاليّا. وفي ضوء هذا التشارط اخترنا العناصر المقاميّة المسؤولة عن توجيه دلالات المثل. ونرتّبها وفق الأهميّة أو بالأحرى وفق مدى كفايتها التأويليّة.

من البيّن أنّ دراسة المقام تتواتر في الدراسات التداوليّة المهتمّة بمستويات التلفّظ وشروط الاستعمال وما يرتبط بها من عناصر مرجعيّة كان دي

سوسير قد أقصاها من علم اللّسانيات كما نطالع حضور هذا المشغل في البحوث الّتي تعنى بمسالك الإنتاج الأدبيّ دون أن تهتمّ كلّ الاهتمام بآثاره في بناء المعنى شأنها في ذلك شأن الدراسات الّتي اشتغلت على التقبّل واقتصرت على استثمار المعارف المستخلصة من دراسة الدليل اللّسانيّ والحال أنّ الاشتغال على المقام يقتضي الاهتمام بمسالك الإنتاج والاستقبال. ويتجلّى هذا التلازم عند برانكارد Bronkard الّذي قسّم مسالك الإنتاج الأدبيّ إلى فضاءين "فضاء عمل الإنتاج " وفضاء التفاعل الاجتماعيّ(للتوسع ينظر: Brankard, J,1985). المهمّ في كلّ ذلك أنّنا نعتزم إدراج التأليف الأدبيّ في حيّز الأنشطة الاجتماعيّة والتقسيم الاجتماعيّ للعمل، علّنا نتعرّف ملامح المسار النشوئيّ للنصّ الأدبيّ.

معلوم أنّ التصوّر الرومنطيقيّ الآخذ بأسباب الوحدة العضويّة للنصوص الأدبيّة والهائم بالطاقة المولّدة لها، هذا فضلا عن الأقاويل الّتي تمجّد شخصيّة الأديب، تحجب عنّا الدلالات الموضوعيّة للآثار الأدبيّة. وليس أدلّ على هذا التمجيد من ذلك الضرب من الأقاويل الذاتية الّتي تعرّف الأديب على نحو مثالي يجعله أحد ورثة الأنبياء. فقد استهل أبو هلال العسكريّ مقدّمة الأوائل بقوله: " الحمد لله الذي رفع رتبة الأدب وذويه، وأعلى منزلة العلم وحامليه، وجعلهم للدّين قواما وللمحاسن نظاما، ففهم بهم الغبيّ ، وأنطق العييّ، وصيّرهم ورثة أنبيائه، وأمّة لأوليائه "(العسكري أبو هلال: 1997، 5). وما كنّا في حقيقة الأمر لندرك هذه الدلالة الموضوعيّة لو لم نضع في الحسبان المقام المؤسسيّ ووظائف الأدب وكلّ ما يبعث على الإنتاج الأدبيّ وينخرط في مساره النشوئيّ. ولعلّه من المفيد أن نشير إلى أنّنا نعنزم اختزال فضاء الإنتاج الأدبيّ في باعثين واحد ذي طابع مؤسسيّ وآخر ذي طابع تلفظيّ. أمّا الباعث المؤسّسيّ فشبيه بالحدث المنجز قبل عمليّة القول

ذاته شأنه في ذلك شأن المثير. أمّا الباعث التلفظيّ، فيماثل الحدث المنجز آن عملية القول(Bloomfield, L, 1970:)

1 -1 الباعث المؤسسيّ

نخصّص هذه الفقرة لدراسة أثر وظيفة الأديب ومنزلته الاجتماعيّة في توجيه دلالة مثل " الأسد والغوّاص". وما تجدر الإشارة إليه هو أنّنا نعتزم التعامل مع هذه الوظيفة لا بوصفها وحدة مقاميّة قابلة للعزل وإنّما نتعامل معها وهي مجراة في النصّ.

يقول مؤلّف مثل " الأسد والغوّاص" متحدّثا عن طريقته في التأليف وعن مقصده " وقد رأيت بتوفيق الله أن أجمع في هذه الكراريس ما سنح لي من الحكمة ممّا أرجو من الله عزّ وجلّ وعلا أن ينتفع به قارئه وطالبه" (الأسد والغوّاص، 1992: 39). ويذكّرنا هذا القول بما جاء على لسان ياقوت الحموي وهو يصف طريقته في التصنيف " وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إليّ من أخبار النّحويين واللّغويين والنّسّابين والقرّاء المشهورين، والإخباريّين والمؤرّخين، والورّاقين المعروفين، والكتّاب المشهورين، وأصحاب الرّسائل المدوّنة، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعيّنة، وكلّ من صنّف في الأدب تصنيفا".(الحمويّ ياقوت، ش، 1993: ج1:7). يفصح هذان القولان عن متصوّر الأدب ووظيفة الأديب. فالأدب جمع وتأليف وأخذ ممّا يعني أنّ الأديب لا ينتج المعارف والعلوم بقدر ما يبلّغها وينشرها. ويتأكّد هذا المفهوم بقول ابن خلدون " الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كلّ علم بطرف" (ابن خلدون، ع، ج2:721). ويدلّ لفظا الحفظ والأخذ على أنّ موضوع علم الأدب ليس الحقيقة، وإنّما الطّريقة الّتي تؤخذ بها الحقيقة، من تعليم وتعلّم وجمع وتصنيف في الكراريس على النحو الّذي ذكره مؤلّف " الأسد والغوّاص" المجهول.

وما نخلص إليه من هذا التحديد، أنّ الأدب هو المعرفة وهي في طور النقل والإبلاغ لا الإنتاج والصناعة. ومن هنا يتّضح الفرق بين الأديب من جهة والعالم والفيلسوف والفقيه والمفسّر من جهة ثانية. فهؤلاء جميعا يصنعون المعرفة وينهضون بدور الفاعل المنتج في برنامج صناعة الحقيقة. وهم جميعا ورثة الأنبياء والسرّ الربّاني. أمّا هو فيبلّغ ما تروم كلّ من مؤسّسات صناعة الاعتقاد والسّلطان تثبيته في الأذهان. ولا يمكن أن ننخدع بذلك الضرب من الأقاويل الذاتيّة الّتي توهمنا بأنّ الأديب لا يطلب سوى النصيحة والإرشاد أو حسن الأفعال على النحو الّذي نجده في قول الغوّاص مبرّرا سعيه إلى نصح الملوك. ويقول في هذا الغرض " إنّي أخشى أن يكون علمي حجة عليّ فإنّ السعيد من استعمل نعمة اللّه عليه فيما يقرّبه إليه فتكون الفضيلة الّتي أوتيها سببا لفضيلة أكبر منه" (الأسد والغوّاص، 1992: ص37)

ولكن السؤال الّذي ينبغي طرحه في هذا السيّاق هو: إذا كانت رغبة الأديب ملّحة في النصح والنقل وتبليغ المعاني المشتركة، فلم اللّجوء إلى المخادعة والتوريّة؟ هل يمكن أن نقتنع بالتبرير الصّريح الّذي يعرضه المؤلّف المجهول في التقديم؟ إلا يمكن أن تقبع الإجابة المفيدة خلف المصرّح به، مادامت حقيقة الخطاب تكمن في ما يجدّ الخطاب المثليّ في إخفائه؟

ينعقد التبرير الشائع الّذي يسند إلى وظيفة وضع الحكمة على لسان الحيوان على مثنويّة الإمتاع والإفادة. يقول مؤلّف مثل " الأسد والغوّاص" " اعلم أنّ الحكماء جعلت الحكمة من ضمن الأخبار على ألسنة الحيوانات وفي أثناء الحكايات لتخفّ على القلوب وتهشّ إليها الأسماع"(الأسد والغوّاص، 1992: 38). ولا نجد اختلافا كبيرا بين هذا القول وما نطالعه من أقوال في مقدّمة كتاب " كليلة ودمنة" من مثل قول ابن المقفّع: " فأوّل ما ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه الّتي وضعت له، والرّموز الّتي

رُمزت فيه، وإلى أيّ غاية جرى مؤلّفه فيه عندما نسبه إلى البهائم وأضافه إلى غير مفصحٍ، وغير ذلك من الأوضاع الّتي جعلها أمثالا، فإنّ قارئه متى لم يفعل ذلك لم يَدْرِ ما أُريد بتلك المعاني ولا أيّ ثمرة يَجْتَني منها، ولا أيَّ نتيجة تحصلُ له من مقدّمات ما تضمّنه هذا الكتاب. وإنّه إن كانت غايته منه استتمام قراءته والبلوغ إلى آخره دون تفهّمٍ ما يقرأ منه لم يَعُدْ عليه شيءٌ يرجع إليه نفعُه (ابن المقفع، 1980: 48). ويقول في "مثل طالب العلم والصّحيفة الصّفراء" ما يلي: "وكذلك من قرأ هذا الكتاب ولم يفهم ما فيه ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا لم ينتفع بما يبدو له من خطّه ونقشه. كما لو أنّ رجلا قُدِّم له جوز صحيح لم ينتفع به إلاّ أن يَكْسِرَه ويستخرج ما فيه."(ابن المقفع، 1980: 49). ويقول أيضا " لم يزل العقلاء من أهل كلّ زمان يلتمسون أن يُعقل عنهم، ويحتالون لذلك بصنوف الحيّل، ويطلبون أخراج ما عندهم من العلل..."(ابن المقفع، 1980: 3). ويتعاود هذا القول على في مثل الأسد والغوّاص بقوله " وكان ذلك منهم...كالصيّاد الّذي يطرح الحبّ خدعة للطائر لا للعلف بل لغرض آخر غير بادٍ منه. ولا بأس بالخديعة إذا أدت للصّلاح والمنفعة"(الأسد والغوّاص، 1992: 37 -38).

نحن لا ننكر كلّ الإنكار هذا التبرير الّذي يربط المنفعة بتخطّي ظواهر الأشياء نحو بواطنها ويعقد من جهة ثانية صلة بين الإفادة والإمتاع. ومؤدى معقوليّة هذا التبرير، أنّ شرعيّة الكتابة الأدبيّة ترتبط بالجمع بين الإمتاع والإفادة. ومع ذلك نرى وجها آخر للمسألة يرتبط بالفضاء الاعتقادي الّذي جعل هذا الأثر الأدبيّ ممكنا. يقول دومنيك مانقنو .D Maingueuneau مؤكّدا ذات الاعتبار "ليس باستطاعة الأثر الأدبيّ أن يقول شيئا عن العالم إلاّ إذا حمل أثر الفضاء الّذي جعله مكمنا " (Maingueneau D, 1993: 30).

إنّ الفضاء الّذي جعل هذا الأثر الأدبيّ ممكنا، يعبّر عن نفسه من خلال السجلّ الغنوصيّ الّذي يربط الحقيقة بالخفاء والاحتيال والتقيّة والخديعة. ويمكن أن نسمه بفضاء سياسة الحقيقة أين تتوزّع بين ضروب مختلفة حسب وجهتها. فمنها المصرّح به وهو المشترك والعاميّ والجمهوريّ. ومنها "المضنون به على غير أهله" و"غير المصرّح به إلى الجمهور"، و"ما لا يحقّ للعامّة أن تخوض فيه"، و"ما ينبغي أن تلجم عنه" (ابن رشد، 1983، ص58)

يعكس هذا التصنيف تصوّرا "أرستقراطيّا" للمعرفة، ينقسم القرّاء بمقتضاه إلى فئتين متفاوتتين في درجات العرفان: واحدة تعرف الظّاهر فقط، وأخرى تعرف الظّاهر والباطن وما وراء الظّاهر وما تحته، وما فوقه... وهي لاطّلاعها على جهات المعنى الستّ ومعرفتها بطبقاته الجيولوجيّة تحتكر الحقيقة وتهيمن عليها وتفرضها باسم معرفة متفوّقة وسرّيّة. وهذا التّصوّر يجعل العلماء والحكماء محتكرين للعلم، لا يظهرون إلاّ جزءا من الحقيقة أو بعضها، لأنّ التّصريح بها من شأنه أن يفسد أمر العامّة.

إنّ لجوء مؤلّف الأسد والغوّاص إلى التمثيل يعبّر عن ملامح المقام التواصليّ. فهو مقام تساس فيه الحقيقة بين سلطتين واحدة تمتلك سلطة صناعة الحكمة المقنّعة وأخرى تقدر على هتك حجبها. أمّا الّذي يجمع بينهما فهو مبدأ الاحتكار. وبه تكون ممارسة الفكر وممارسة السّلطة شيئا واحدا. ومؤدى ذلك أنّ كلّ نقل للمعارف يرتبط ارتباطا وثيقا بإنتاج السلطة. ولعلّ ما يجدر بنا أن نشير إليه هو أن قيمة هذا المقام تكمن في ما ينطوي عليه من ضمنيّات ترسم على شفا الغيّاب متخيّل السلطان بوصفه شخصيّة تجمع بين الحكمة والسلطة. ولعلّ ما يؤكّده تاريخيّا هذا الاقتران، وصول السلاجقة إلى الحكم وسعيهم إلى التحالف مع العلماء.

وبهذا الشكل ينخرط المقام التواصليّ ذو الطابع الأرسطوقراطي الاحتكاري للمعرفة والسلطة في تمثيل السّلطان. ويضطلع الأديب في خضمّ كلّ ذلك بوظيفة سياسيّة. فهو يعمل شأن الخاصّة على " حمل العامّة على طاعة الأمير. فهي تقوم بالسّلاح الّذي تمتلكه، سلاح الكلمة، والعلم - الإيديولوجيا - بنفس المهمّة الّتي يقوم بها الجند بأسلحتهم المادّيّة: الجند يقهر الأجسام، والخاصّة تطوّع النّفوس بالكلمة. والمهمّ في هذا التّحليل أنّ المعرفة والسّلطة، أو العلم والسّلطان متلازمان تلازم الأمير والكاتب، والخليفة والفقيه، والسّيف والقلم.

وبفضل هذه الخصوصيّة بغدو المثل ذاته مقاما cotexte من حيث هو حصيلة الشروط الّتي تصلح للاستعمال وللعمل القوليّ" (1985: 25 Moschler, J,). ومصداق ذلك أنّه يشكّل واحدا من الشروط المناسبة لإيقاع عمل النصيحة لاسيّما أنّ نصح الملوك يجري تلميحا لا تصريحا. وليس أدلّ على هذا الاعتبار من اعتماد المؤلّف أسلوب التمثيل السرديّ. فهو يصدّر الباب الواحد بعنوان مقتطع من مرايا الأمراء ثمّ يردفه بوقائع تجري قيم النصيحة المباشرة إجراء سرديّا. تلك هي إحدى وجوه التناسب المفصحة عن دور المقام في توجيه دلالة مثل " الأسد والغوّاص".

1 -2 الباعث التلفظيّ vocation énonciative

سعينا في المقاطع السابقة إلى أن نتبيّن أثر الباعث المؤسسيّ في توجيه دلالة المثل برمّته. إلاّ أنّ مدى التأويل لا يقف عند هذا الحدّ لأنّ قصصيّة المثل تقتضي المصادرة على أنّه هناك من يتحمّل مسؤوليّة التلفّظ القصصيّ ويتوجّه إلى متلفّظ له. وقد بدت الحاجة إلى دراسة التلفّظ أكيدة لما له من دور في الإفصاح عن دلالات النصّ لاسيّما أنّ مؤلّف هذا المصنّف، مجهول. إذن فيم يتمثّل دور الباعث التلفّظيّ في بناء التأويل؟

يقول دومينيك مانقينو معرّفا هذا المصطلح " نستخدم مصطلح الباعث التلفظيّ للدلالة على ذلك الإطار الّذي يجد فيه الأديب نفسه مدعوا إلى الإنتاج الأدبيّ" شأنه في ذلك شأن الطبيب الّذي توجب عليه أخلاقه المهنيّة والشهادة الّتي مُنحت له أن يعالج المرضى أو شأن المثقف في القرن السابع عشر في فرنسا إذ تحمله ثقافته واسعة ورغبته في تطوير النظام السياسيّ على أن يكتب بنفس الدرجة الّتي تحمل صورة من له حساسيّة قويّة تجاه التجربة الذاتيّة وأحوال النفس الباطنة على الكتابة(Maingueneau, D, 1993: 78).

نتبيّن من خلال تأمّلنا المقدّمة وعنوان الأثر والعناوين الداخليّة أنّ نظام التلفّظ في مثل " الأسد والغوّاص" ينهض على استقدام لوحتين تلفظيّتين سبق أن اعتمدتا في جنسين سابقين هما الحكاية المثليّة والأدب السلطانيّ أو مرايا الأمراء.

أمّا اللّوحة التلفظيّة الأولى فنسمها بلوحة "كليلة ودمنة" ويجلوها العنوان والإطار المشترك والمقدمة بما توافرت عليه من بنود العقد القرائيّ. ويذكّرنا العنوان " الأسد والغواصّ" بالقصص المشترك في "كليلة ودمنة" ومثال ذلك مثل" النّاسك وابن عرس...". أمّا الإطار العامّ المشترك فنتبيّنه من خلال تشابه شخصيّات الأثرين. فالأسد هو ملك الوحوش في كلا المثلين. والغوّاص ثعلب شأنه في ذلك شأن دمنة. أمّا صديق الغوّاص الّذي ينصح بعدم التعاون مع السلطة. فيماثل في الهويّة شخصيّة كليلة. ويتوضّح هذا القالب أكثر فأكثر بتبرير السّارد وضع القصّ على ألسنة الحيوانات بوظيفة الإمتاع، ذلك أنّ الحكمة لمّا توضع على ألسنتها تخفّ على القلوب وتهشّ إليها الأسماع. وما يؤكّد هذا الأمر هو استدعاء الذات المتلفّظة في سياق التمثيل بعض الأمثال الّتي تذكرنا بمثل الدرّة والصدفة والبحر. والّذي يجمع

بينهما، اعتبار الحجب سبيل المنفعة والإفادة. فالطبيب يدفن الدواء في بعض ما تتوق إليه النفس والصيّاد يطرح الحبّ خدعة للطائر(الأسد والغوّاص، 1992: 37).

يشكلّ هذا القالب التلفظيّ الأوّل سيّاقا ميتاليسانيا خاصّا contexte métalinguistique spécifique يحدّد طريقة التأويل ومساره. و تتّضح معالمها من بنود العقد القرائيّ الّذي يقضي بمجاوزة الظاهر نحو الباطن وتأوّل هذه الحكاية الرمزيّة على إيقاع الإبدال والتحويل الاستعاريّ. وتأكّد هذا المنحى بالمنزع التعليميّ الّذي أظهرته صيغ الخطاب المباشر " اعلم، ألا ترى ، لا تستبقنّ". يقول الراوي " اعلم أنّ الحكماء جعلت الحكمة في ضمن الأخبار وعلى ألسنة الحيوانات وفي أثناء الحكايات لتخفّ على القلوب وتهشّ إليها الأسماع" (الأسد والغوّاص، 1992: ص37).

أمّا اللّوحة التلفظيّة الثانية فنسمها بلوحة مرايا الأمراء. فقد رتّب المؤلّف أبواب الكتاب على طريقة ترتيب الأديب للنصائح السلطانيّة حتّى يضبط علاقة السلطان بخاصته وبجيشه ويرسم له آداب الحكم والمطاعمة والمنادمة...

تستقيم محاور التشابه بين الأسد والغوّاص وكليلة ودمنة، عناصر ترميز تحملنا لحظة التقبّل الأوّلى للنصّ على صوغ مجموعة من الفرضيّات، توجّه دلالة المثل صوب الانعقاد على التعريض بالسلطة المستبدة والانتصار للعقل على حسابها ما دام ينفذ بالحيلة إلى ما لا ينفذ بالقوّة الماديّة. أمّا العناوين الداخليّة فتحملنا على مراجعة الفرضيّات المستخلصة من القالب التلفظيّ الأوّل. ومن ثمّ نستبدل مقصد التعريض بمقصد التعاون. على هذا النحو من الاستبدال والمراجعة والمراوحة بين تحقّق التوقّع وخيبته ترتسم

ديناميكيّة التأويل حتّى لكأنّنا إزاء نزاع في التأويل بين تصوّرين متقابلين واحد أساسه التوقّع وآخر ديدنه تخييب التوقّع.

أمّا إذا ألّفنا بين المنزعين، بين قالب مرايا الأمراء وبناء التمثيل بوضع الحكمة على لسان الحيوان، فإنّنا نخلص إلى قالب ثالث نسمه بقالب التلطّف في النصح المناسب لهيبة الحكّام. وبهذا التلطّف أيضا يمتلك المتلفّظ القدرة على النصيحة ونفع الملوك. زد على ذلك أنّه يخرجها في صورة الحكمة المضنون بها على غير أهلها. وبالاستتباع يخرج تأويل الأمثال في صيغة التأويل العرفانيّ، لأنّ المثل يبعّد المسافة بين القارئ والنصّ ويخفي المعنى. فتغدو علاقة اللّفظ بالمعنى قائمة على مبدأ الكشف. وممّا يترتّب على هذا التلطّف في النصح بالاعتماد التمثيل السرديّ، هو إخراج المتلفظ له، طالب المنفعة في صورة الإمام الحكيم المعصوم القادر بمفرده على بلوغ باطن التأويل، شأنه في ذلك شأن فقهاء الباطن من المتصوّفة. وتشف هذه الصورة عن طريقة مخصوصة في تقسيم العالم، تجعل من الملوك الحكماء تخييلا سياسيّا تعمل مؤسّسة الأدب على تثبيته وإدامة الاعتقاد فيه.

نعدّ في ضوء هذا ضوء ما تقدّم القدرة على نصح السلطان، باعثا تلفظيّا vocation énonciative يوجب على الأديب ألاّ يكتم السّلطان النصيحة. يقول الراوي " وقد رأيت بتوفيق اللّه أن أجمع في هذه الكراريس ما سنح لي من الكلام في الحكمة ممّا أرجو من اللّه جلّ وعلا أن ينتفع به قارئه وطالبه"(الأسد والغوّاص، 1992: 39). يحمل هذا القول أثر التجذّر المقاميّ. وذلك لتضمّنه بعض المشيرات المقاميّة Déictiques. نقصد تلك الصيغ اللّغويّة الّتي تكشف حضور المتلفّظ في ملفوظه ومنها نذكر تمثيلا لا حصرا الظريفين الآن والهنا والضمائر المتعلّقة بالمتكلّم والصيغ اللّغويّة ذات الطابع الوجدانيّ التقويميّ فضلا عن ضروب المجاز المفصحة عن حضور ذات

مخصوصة في المنجز اللّغويّ(Orecchioni Catherine Kerbrat, 1980 : 40, 42, 70, 71, 72). وتميّز نرجس باديس بين صنفين من المشيرات، "صنف يحيل على مقوّمات حدث التخاطب أي المتكلّم والمخاطب وزمان التلفّظ فيتّسم بسمة الحضور ويعبّر عن تقارن إحاليّ وهو ما نطلق عليه ' المشيرات الحضوريّة (باديس نرجس 2005) تأكيدا على أهميّة سمة الحضور التخاطبيّ بمفهوم الحضور الّذي أثبته النحاة باعتباره مقابلا لسمة الغياب ومنقطعا كلّ الانقطاع عن الدلالة الحسيّة الماديّة، وهي سمة تسجلّها اللّغة وتجعل لعناصرها مميّزات مخصوصة، وصنف يحيل على ما هو حاضر في المقام التخاطبي بفضل إشارة حسيّة يوقعهخا المتكلّم وتخصّ اسم الإشارة" (باديس نرجس2006: 114).

تطالعنا المشيرات المقاميّة في تقويم الأمثال ووسمها بالنفع. وتجيء صراحة على لسان الغوّاص، وهو ينتصر لموقفه القاضي بوجوب نصح السلطان، فيقول: " أخشى أن تكون الفرصة الّتي لي اليوم غصّة لي غدا فيكون الّذي أرجو المنفعة به لنفسي ولجميع أهل المملكة من أبواب المضرّة فإنّ مضيّع الفرصة في وقتها حقيق بالندامة في أثرها ومع الندامة تكون الحسرة ومع الحسرة يكون الضنى في القلب والكبد فأموت مفرطا أو أعيش كئيبا" (الأسد والغوّاص، 1992: ص 50). إذن نحن إزاء متلفّظ قادر على تحقيق النفع للمنتصح. ذلك ما تفصح عنه مقاصد القول وضمنيّاته وطريقته في صوغ نصيحة الملوك. أمّا الّذي يتكتّم عليه هذا المتلفّظ ويساهم بدوره في إبراز ملامحه أكثر، فهو أنّ للناصح فضلا كبيرا على المنصوح، قد يجعله أهلا للحكم قبل الحاكم. وبتردّد صدى هذه العلاقة في تفاصيل حكاية الأسد والغوّاص يستقيم نظام التلفّظ موجّها لدلالة المثل في ضرب من التوقّع، يتراوح بين التحقّق وعدم التحقّق. من ذلك أنّ الغوّاص كان سواء قبل تجربة السجن

أو بعدها صاحب فضل على الأسد الّذي استجاب للشروط الّتي أملاها عليه الغوّاص، حيث صاغ عقدا جديدا للنصيحة يقتضي البعد لا القرب، حتّى أنّه لم يجد غضاضة في التعريض به. يقول الغوّاص " أيّها الملك يمنعني من المقام عندك أسباب، أحدها أنّي وأن كنت بريئا فإنّ الّذي فعلته معي ممّا يُحدِث الاستراابة بي وقد اتهمتاني بالإساءة من غير أن يتقدّم إليّ منك ما يوجب الإساءة" (الأسد والغوّاص، 1992: ص 176).

ويبدو لنا هذا الباعث التلفظيّ جليّا في التمثيل السرديّ وتحديدا في الباب الثاني من الكتاب " باب ما يجب على الرعيّة من نصيحة الملك، وأنّ ذلك بنفع الناصح كنفعه للمنصوح وأنّ أمر الملك والرعيّة متعلّق بعضه ببعض وفيه دلالة على أنّ نصحه للملك نصحه لنفسه"

تفصح الافتراضات الّتي تقدّم ذكرها عن وضعيّة تواصليّة تلوح فيها الذات المتلفّظة منسجمة مع سنن التأليف الأدبيّ. وكيف لها أن تذر هذا الانسجام والحال أنّه لا يمكنها أن تمتلك شرعيّة الكتابة إلاّ بالاستجابة لبعض الشروط المؤسسيّة كالاستجابة لطلب وليّ أمر أو الوفاء لمقتضيات الجنس الأدبيّ أو طراز سابق. إذن هذه الذات هي ذات مؤسسيّة تجري بريح الأوائل وتحترم شروط الجنس وسنن التأليف وتصدر عن رؤية تؤلّف بين الجميل والنافع وتنأى عن الفصل بين الهزل والجدّ. ويكتسب السياق التلفظيّ contexte d'énonciation بهذا الاحترام طابعا حواريا قوامه معرفة مشتركة بين المتلفظين تنهض بدور كبير في تحديد هويّة الأديب الّتي ترتبط بكلّ ما هو عاميّ ومشترك خلافا للبرهانيين (ابن رشد أ، 1983: 58).

هكذا يرسم إيتوسEthos التلفّظ صورة متلفظ يلتزم بشروط التلفّظ المشروع(5) فهو يحترم بنود لعبة التوقّع الأدبيّ ويطالع متقبّليه بما

يتوافق مع انتظاراتهم. ويؤكّد هذا الأمر، صعوبة الفصل في تأويل النصوص بين الإيتوس والهابيتوسHabitus من حيث هو مجموعة من المبادئ العليا الّتي تنشئ ممارسة الأفراد وتهيكلها من جهة أولى وتنتظم تمثلاتهم من جهة ثانية وتناسب الأهداف من جهة ثالثة دون أن تكون بالضرورة مقصودة قصدا صريحا(Bourdieu,p, 1980: 88.).

خلاصة القول إنّ السياقات غير اللّسانيّة تنهض بدور مهمّ في توجيه دلالة مثل الأسد والغوّاص. فقد صرفتنا في البداية ضروب السياق غير اللّساني على اختلافها إلى بناء فرضيّات تصادر على علاقة مأزومة بين الأديب والسلطان، شفّ عنها القالب التلفظّي الأوّل أمّا القالب التلفظيّ الثانيّ فخلّف أثرا سياقيّا جليّا وهو تعديل الفرضيّات المستخلصة من القالب الأوّل. ولمّا كانت تلك الفرضيّات مستقرّة في الذهن، خارج النصّ وملازمة لضرب مخصوص من الأقوال أو بالأحرى من الأجناس الأدبيّة جاز لنا أن نعدّها بمعيّة المقام جوارا ذهنيّا للقول قياسا على السياق اللّسانيّ من حيث هو جوار لفظيّ تشكّله الوحدات اللّسانيّة الّتي تسبق القول وتتلوه. ولعلّه من المفيد أن نتساءل عن العلاقة بين السياقين فنقول: ألا يمكن للمقام أو السياق غير اللّسانيّ أن يحضر في ذاكرة القارئ في صيغة الإمكانات والاقتضاءات الّتي تمنحه المقدّمات الّتي يجري على أساسها بناء الفرضيّات؟ أو لا تكون الآثار السياقيّة اللّسانيّة تبعا لذلك ضربا من الدعم أو الدحض أو التعديل لتلك الإمكانات والتوقّعات الدلاليّة؟

2 - الأثر السيّاقيّ موجّها دلاليّا

يعدّ السيّاق جوارا لسانيّا Environnement linguistique، تتحدّد في ضوئه دلالة الوحدة اللّسانيّة. وتوضّحت هويّته أكثر على يد نحاة النصّ إذ أقحموه في حقل الظواهر الّتي تجاوز من جهة أولى بنية الجملة

بوصفها أقصى وحدة يمكن أن يبلغها التقطيع اللّسانيّ، و تربط من جهة ثانية بين مكوّنات النصّ وما يقوم بينها من علاقات أساسها المعنى. وإذا النصّ على حدّ تعبير محمّد الشاوش وحدة نظام لا استعمال حيث يكون المتقدّم هو المقتضِي والمتأخّر هو المقتضَى(الشّاوش، م، ج2، 2011: ص953). إلاّ أنّ هذا المتأخر لمّا يقحم في سيّاق دلاليّ جديد يغدو هو الآخر متقدّما يستوجب مقتضى Présupposé (دومنيك منغنو وباتريك شارودو 2008: 455).وبهذا الشّكل يكون الجوار اللّسانيّ سيّاقا خطابيّا contexte discursif مادامت دلالة الوحدة اللّسانيّة ترتهن ببقيّة الوحدات سواء أكانت في بداية المقطع أم نهايته.

وفي ضوء هذا التحديد ذهبنا إلى أنّ مدى السياق اللّسانيّ المتحكّم في دلالة الأمثال وتوجيهها يتحدّد بما يسبق ظهور المثل أو يتلوه(1985:8.3 Martinet, A,). أمّا الصّيغة الّتي تتّخذها الجمل الّتي تؤلّف سيّاق الأمثال فتتوزّع بين جمل معطوف بعضها على بعض (سيّاق بسيط) ومجموعة من الجمل تعطف على مجموعة أخرى صنو لها (سيّاق مركّب). وبفضل هذا التصوّر اعتبرنا الأمثال اللاحقة أمارة قطع واستئناف، شريطة ألاّ تعمل في ما يسبقها وتخلّف أثر سياقيّا يحمل على تعديل فرضيّة بنينا على أساسها المعنى.

إنّ تعريف السيّاق على أنّه جوار لسانيّ، يوحي بأنّ المعنى يصاغ عن طريق ضروب مختلفة من العلاقات الدلاليّة الّتي تساهم في توجيه دلالة الأمثال. إلاّ أنّ حدثان المعنى يجاوز في حقيقة الأمر المعطيّات اللّسانيّة. وذلك لوجود جوار آخر ملازم للجوار الأوّل هو الجوار العرفانيّ Environnement cognitif، مادامت المعالجة اللّغويّة للمعطيّات اللّسانيّة تتحقّق ببناء الفرضيّات والتمثّلات الّتي تبنى عبر الاقتضاء (دومنيك منغنو وباتريك شارودو 2008: 455). ويكون عادة للاعتقادات والمواضعات

الثقافيّة المشتركة بين المتلفظين دور مهمّ في بناء الدلالة، شأنها في ذلك شأن المشترك الدلاليّ المضطلع بوظيفة حاسمة في إنجاح التبادلات اللّفظيّة وغير اللفظيّة، حتّى أنّه بغيابه يسقط التبادل في سوء الفهم.

نعتزم في ضوء هذا الجوار المزدوج توزيع هذا العنصر الثاني من العمل بين دراسة الجوار اللّسانيّ والجوار العرفانيّ. أمّا فيما يتعلّق بالجوار الأوّل فنستقرئ التتابع الخطيّ في المقاطع الحواريّة المحيطة بالمثل لاستجلاء العلاقات النسقيّة والدلاليّة الّتي تشكّل بائتلافها سياقا يوجه دلالة الأمثال على نحو مخصوص من التسويّة الدلاليّة وتتبّع المعطيات الطرازية من مواضعات ذات طابع نصيّ. أمّا بالنسبة إلى الجوار الثاني فنعتزم البحث في علاقة الوحدات اللسانيّة المجاورة للمثل بما نعلمه عن العالم وما نأتيه فيه من أعمال(عالم الخطاب) دون أن نغفل صلتها بدلالة الأمثال. ولعلّه من المفيد أن نشير إلى أنّ دراسة الجوار في بعده العرفانيّ تستوجب استرفاد وجوه اشتغال الملكات العليا كالإدراك والذاكرة.

2 ـ 1 ـ دور الجوار اللّسانيّ في توجيه دلالة الأمثال

يصطدم دارس السياق بصعوبة ضبط المدى النصيّ للسياق اللّسانيّ. ولقد ارتأينا أن نتخطّى هذه الصّعوبة باعتبار ظهور المثل في مدارج القول إيذانا ببلوغ السياق اللّسانيّ أقصى مداه. معنى ذلك أنّ ما يتلو المثل يمثّل ميلاد سياق جديد. على أنّنا لا ننفي إمكان قيام حدود أخرى تسيّج مدى السياق اللّسانيّ مثل عناوين الأبواب. ولمّا كان هذا الضرب من السياق جوارا لفظيّا للمثل أي وحدةً لسانيّة يسبقها مرّة ويلحق بها مرّة أخرى(Martinet, A, 1985:8) ارتأينا أن ندرس هذا الجوار بالاشتغال على صيغ تشكّله التركيبيّ والدلاليّ. ولا نختار منها إلاّ المستويات المفيدة، نقصد ما يخلّف أثرا في توجيه دلالة الأمثال. ولم نكن لنركن إلى هذا الاختيار لولا شائبة

السياق المفتوح الّتي تشوب العمل التأويليّ وتسمه بالتعويم والتهويم، متى لم يستصف من السياق المستويات المؤثرة في توجيه دلالة الأمثال. أضف إلى ذلك، أنّ هذه الأمثال يمكن أن يعمل بعضها في بعض وتنخرط في الجوار اللّساني، وقد توسّع من مداه حتّى يجاوز الباب الواحد نحو العديد من الأبواب. ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى الدور الحاسم الّذي يمكن أن تضطلع به الإحالة في تأمين سريان الأثر السياقيّ في دلالة الأمثال.

2 -2 دور الاتّساق النصيّ في بناء دلالة الأمثال

تتوزّع الأمثال في " الأسد والغوّاص" بين أمثال تكتفي بذاتها ولا يتوسّع الراوي في تفصيل القول في وقائعها السرديّة وكأنّها وحدات اللّغويّة مسكوكة يمرّ فيها القارئ إلى العمل المقصود بالقول دون وساطة المعنى الحرفيّ وأمثال قصصيّة يتبسّط الرّاوي في عرض بعض تفاصيلها.

يذهب علماء الدلالة إلى أنّ ما يصطلحون عليه بالتشاكل isotopie ، يؤمّن للمقطع اللّساني الترابط والاتّساق النصّيين. وهو في الحقيقة " مفهوم ابتدعه غريماس(1966) في ميدان الدلالة البنيويّة وعمم في ما بعد استعماله في تحليل الخطاب(سيميائيّة، أسلوبيّة...) ويشير التشاكل إلى جملة الوسائل المساهمة في انسجام مقطع خطابيّ أو رسالة. ومثل هذا الانسجام القائم على تكرار نفس السمة على امتداد الملفوظات، يتعلّق خاصّة بالتنظيم الدلاليّ للخطاب" (شارودو باتريك ومنغنو دومنيك 2008: 322).

يعرض لنا هذا التشاكل الدلاليّ في المقدّمة الّتي حوت العديد من الأمثال المختزلة. فقد تتابعت في البداية مجموعة من الوحدات اللّسانيّة الّتي نحتت في تتابعها دلالة مفهوميّة واحدة. يقول الراوي " اعلم أنّ الحكماء جعلوا الحكمة في ضمن الأخبار وعلى ألسنة الحيوانات وفي أثناء الحكايات لتخفّ على القلوب وتهشّ إليها الأسماع..." (الأسد والغوّاص، 1992: 37).

وبالمقارنة بين ما في الحكمة من جدّ وما في الأخبار الموضوعة على السنة الحيوانات من لهو وخفّة، تتّضح على وجه الافتراض والحدس ملامح النواة الدلاليّة الّتي تشكّلت في المقطع اللّساني الّذي سبق ظهور الأمثال المختزلة وإن كنّا لا ننكر دور سيرورة الحجاج في ظهورها. إلاّ أنّ وجهة النظر الدلاليّة الّتي تخيّرناها لدراسة أثر السيّاق اللّسانيّ في دلالة الأمثال حملتنا على التركيز على مسار تشكّل دلالتها. أمّا النواة الدلاليّة فهي أنّ " الشيء لا يصلح إلاّ بضدّه". وتخرج هذه النواة من الطور المفهوميّ إلى الطور التمثيليّ عبر مجموعة من الأمثال المختزلة كمثل الدواء والغذاء أو صيد الطير وطرح الطعام. يقول الراوي على لسان الغوّاص " وقد جعل ذلك كالدّواء في مدّة استعمال الغذاء الّذي لا تحفظ الصحّة إلاّ به وكالملح في الطعام الّذي لا يطيب إلاّ معه" (الأسد والغوّاص، 1992: ص40) " ويتأكدّ هذا الاعتبار صراحة بقوله أيضا " ولا بأس بالخديعة إذا أدّت إلى صلاح المنفعة"(الأسد والغوّاص، 1992: 38). والّذي ننبّه إليه أنّ ما تلا هذا القول من استطرادات وحجج قوليّة جاءت إن على لسان جالينوس أو ابن المقفّع، يأخذ بسبب من النواة الدلاليّة الّتي رصدناها وبيّنا أثرها في توجيه دلالة الأمثال المختزلة وتحوّلها إلى ذاكرة نصيّة تتفيأ منها الأمثال المفصّلة سرديّا دلالتها. ولعلّ ما يؤكّد أيضا حضور هذه النواة الدلاليّة المشكّلة لسياق المثل هو تكرار بعض الوحدات اللّغويّة قبل المثل وبعد تضمينه. من ذلك قول الراوي قبل إقحام مثل كسرى أبرويز في قتال الروم " قال الغوّاص: قد قيل أيّها الملك: ربّ كلمة ردّت أربعمائة ألف"(الأسد والغوّاص، 1992: 7). وتختم الحكاية المضمّنة بذات العبارة "...فلمّا انتهى الخبر إلى أبرويز ضحك وقال: إنّ كلمة هزمت أربعمائة ألف لجليل قدرها عظيم خطرها" (الأسد والغوّاص، 1992: 77)

يقتضينا الإنصاف أن نشير إلى أنّ تحقّق الأثر السيّاقي في الأمثال على النحو الّذي بيّناه آنفا أغرانا باختباره مدى نجاعة توجيه السياق اللّساني لدلالة الأمثال القصصيّة.

غنيّ عن البيان القول إنّ الأمثال القصصيّة الّتي تجيء على لسان أحد أطراف الحكاية ترد في سياق تمثيليّ يجعل منها حجّة تدعم الأطروحة الّتي ينافح عنها. ولئن كان للبعد التداوليّ دور في تأويل معاني المثل فإنّ ما اعتزمنا التركيز عليه هو محاولة تعرّف أثر السيّاق اللّساني في توجيه دلالة الأمثال.

انتشرت في كتاب " الأسد والغوّاص" صيغة مخصوصة للتشكّل السياقيّ. ومحصّلها مراكمة نامية للوظائف والقيم الدلاليّة وفق استراتيجيا كميّة تختم بانتقاء إحدى القيم أو الأغراض لتشكّل ذاكرة المثل.

تشكّل سيّاق بعض الأمثال آن المحاورة بالانطلاق من النهيّ عن التقرّب إلى الملوك استكثارا لما لديهم. ولا يلبث الراوي بعد ذلك أن يستطرد إلى الاستدلال على زيف التكالب على العطايا معتمدا بعض الحجج العقليّة والقوليّة الّتي تنبّه إلى تبعات الحرص. ولمّا تدرك النواة الدلاليّة المتحكّمة في تتابع الوحدات اللّسانيّة حدّ التشبّع تخرج من الطور المفهوميّ إلى الطور اللّغويّ. فإذا بالراوي يقول " وقد قيل: تعب كلّ أحد بقدر حرصه، وفقره بقدر طمعه، وراحته بحسب تسليمه، وغناه نظير قناعته" وكأنّه بإدراك السيّاق كمال تشكّله، يفتح في النصّ ما يشبه المساحة الّتي تسمح بتضمين المثل. فيقول الراوي حينئذ " وأنا أعظك يا أخي أن يفرُط بك الحرص فيكون مثلك مثلَ البازي والدُّراجة"(الأسد والغوّاص، 1992: 46).

إنّ هذا التتابع لا يجري في نسق تراكميّ ترصف فيه الوحدة إلى جانب الوحدة وإنمّا يتحقّق في نسق قائم على اشتراك دلاليّ مؤدّاه علاقات تبعيّة

على الوصفيّة أو التأكيد أو البدليّة، مادام عطف الجملة على الجملة لا يقع على الاستواء التامّ(للتوسّع انظر: الشاوش م، 2011 ،ج1: 429). ولعلّه من المفيد أن نشير إلى أنّنا لا ننوي استعمال مصطلح التكرار استعمالا اصطلاحيّا " ضمّ الشيء إلى مثله في اللّفظ مع كونه إيّاه في المعنى للتأكيد والتقرير" (الاستراباذي،ر، 1968، ج1، ص49). إنّ التكرار الّذي نقصد يشبه الاستئناف البيانيّ الّذي تعطف فيه الجمل على بعضها وتتّفق علاقتها فيما بينها بالخارج. يقول محمّد الشاوش موضّحا هذه العلاقة أكثر " فقد صرنا نجمع تحت الاستئناف البيانيّ كلّ ما كان فيه الثاني مبيّنا للأوّل سواء اقترن بالأداة أو لم يقترن بها " (الشاوش، م، 2011 ،ج1: 441)

يقول الراوي قبل تضمين مثل تصرّف بعض العقلاء لتخليص رجل من يد أحد الأمراء " فاجتمع أعداء الغوّاص فقال بعضهم لبعض: هلمّوا نظهر للملك أنّا نريد استصلاحه له ليكون أخفى لما يكون منّا في أمره، وأعدل لشهادتنا عليه وقولنا فيه، وأبعد للظّنّة بنا في أمره.فقد يجب على الحازم أن يُظهر من أمره ضدّ ما في نفسه ليكون أخفى لقصده كما فعل بعض الأكياس حين أراد أن يخلّص رجلا من يدي بعض الأمراء قالوا له: كيف كان ذلك"(الأسد والغوّاص، 1992: 125). وتتابع الأمثال حاملة نفس الأثر الدلالي حيث يقول الراوي " قال واحد منهم: أنا أعرف خبرا يشبه هذا المعنى ... وقال آخر: قد فعل عمرو بن العاص مثل ذلك. قالوا: وكيف كان ذلك...وقال واحد منهم: هذا مثل ما ذكر من خبر الهرمزان "(الأسد والغوّاص، 1992: ص125 -130)

تقوم بين الوحدات اللّسانيّة الّتي تشكّل جوار المثل علاقات تبعيّة على البدليّة والوصفيّة مؤدّاها ما بين أعداء الغوّاص والحازم من تماثل في الصفة الحزم والمبادرة إلى العمل والحيطة وكلاهما يظهر ضدّ ما في نفسه.

ويتأكّد التناسب بين وحدات المقطع السياقيّ المذكور آنفا بقيام العطف فيها على علاقات تجاوز الحكم الإعرابيّ واشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الأعراب لأنّ العنصر لا يعطف على العنصر والجملة لا تعطف على نفسها لاّ إذا قامت بينهما مناسبة. وتتّخذ الجمل في تتابعها هذا صيغة عطف المتعدّد على المتعدّد أو عطف القصّة على القصّة. يقول التهانوي في ذلك " هو أن يعطف جملا مسبوقة لغرض على جمل لغرض آخر لمناسبة بين الغرضين" (التهانوي، م، 1996 : 1008). وإذا نظرنا في تجربة الغوّاص مع الأسد فإنّنا نلفيها تكرّر بالتوسّع والامتداد مثلا ورد على لسان الغوّاص نفسه وهو يرسم للأسد ملامح العلاقة الّتي تصله به. يقول الراوي على لسانه " اجعلني أعرض عليك عقول الناس وآراءهم وعلومهم وأخبارهم وأفتّش لك عن زبد العلم والحكمة. فأباشر المشقّة في البحث عنه. وتنال أنت المنفعة به كالغوّاص الّذي يقتحم اللّجج ويلجّج ليستخرج للملك الدّرّة النفيسة والجوهرة الثمينة فيأخذها الملك عفوا" (الأسد والغوّاص، 1992: ص 104) وتختم هذه الوحدة السرديّة المتّصلة بعقد النصيحة بقول الراوي " وصار يتردّد إليه في أوقات خلوته وأنسه وساعات نشاطه فيهدي إليه طرف العلم وتحف الأخبار ومحاسن الآثار ومكايد الملوك وسياساتهم وثاقب آرائهم ودقّة مراميهم حتّى زاد أنس الأسد به وانشغل عن كثير من أصحابه فحسده قوم من خواصّه وأجمعوا على مكيدته"(الأسد والغوّاص، 1992: ص 108)

ولا يمكن أن نتعرّف محاور الربط إلاّ من خلال المعاني والدلالات الحاصلة بالجمل، ناهيك أنّ التناسب الّذي يتحقّق في نطاق العلاقات الدلاليّة بين الأشياء، يجري على أساس منطقيّ مؤدّاه إدراكنا للعلاقة بين الأشياء على النحو الّذي نراه عليه في هذا العالم. ويعني هذا أن المبالغة في إظهار الشيء ومراكمة العناصر الّتي تبرزه تكون بمقتضى مبدأ المغايرة سترا لأمر

آخر فطلي الوجه القبيح بالمساحيق المتنوّعة يظهر وجها مقبولا وهو نفس الوقت هو إخفاء لقبحه. ذلك ما قد تسعفنا به موسوعتنا الثقافيّة

ندرك هاهنا الوظيفة السياقيّة للتكرار. فهو يمكّننا من مجاوزة العلاقات الإعرابيّة والتركيبيّة المنتظمة للمثل. زد على ذلك أنّه يوفر للمقطع اللّسانيّ المتألّف من الجوار الّذي يسبق المثل ويتلوه سيمات دلاليّة متناسبة تنتج الأثر السياقيّ الموجّه لدلالة مثل البازي والدُّراجة. يقول الراوي على لسان أخي الغوّاص عندما أراد ثني أخيه عن مصادقة الملوك " وأنا أعظك يا أخي أن يفرط بك الحرص فيكون مثلك مثل البازي والدّرّاجة" (الأسد والغوّاص، 1992: ص46). ويختم المثل بقول الأخ الناصح " وأنا أخشى عليك عاقبتهما فإنّي أراك حريصا على ما يضرّ بك جبانا عن ملك نفسك " (الأسد والغوّاص، 1992: ص 46)

ونتبّن ملامح الأثر الدلاليّ بانصراف المثل باتّجاه مسار دلاليّ أحاديّ تتّضح معالمه من خلال التسميّة البازي والدّراجة. ذلك أنّ السيّاق الحاضن لهذا المثل يحضر في صيغة معطيّات أو مجموعة من المعلومات الّتي تعرّفنا إلى ملامح كلّ منهما فالبازي حريص على صيد الدّراجة. وهي بدورها حريصة على النجاة وكلاهما يقتلهما الحرص. وبهذا الشّكل تكون علاقة المثل بجواره اللّسانيّ علاقة تشارط دلاليّ conditionnement sémantique، في كلا الاتّجاهين. معنى ذلك أنّ المثل ذاته يمكن أن يستحيل هو الآخر سياقا بالنسبة إلى القيمة الدلاليّة المفهوميّة الّتي تتقدّمه. فهو معرفة عمليّة وثيقة الصّلة بالخارج والتجربة. وبفضلها يتبدّد الغموض المفهوميّ ويُسدّ كلّ نقص في القيمة الدلاليّة الّتي تشكّلت بتتابع الوحدات اللّسانيّة المبلورة لسيّاق المثل. وبهذا الشّكل يستقيم المثل مرجع تأويل القيّم الدلاليّة، لاسيّما أنّ كلّ قول هو في آن عمل إحالة وتلفظ ووصل بين وحدات لسانيّة سابقة ولاحقة.

لا يصرفنا ما للتشارط الدلاليّ من أثر في توجيه دلالة الأمثال عن مظهر أخر لهذا التوجيه. وهو الإطار البراغماتي للتلفّظ، ذلك أنّ أمثال كتاب " الأسد والغوّاص" ترد في سيّاق حواريّ حجاجيّ تتقابل فيه الأطاريح والمسارات الحجاجيّة. وتشكّل مجتمعة إطارا براغماتيّا يسمح بتعرّف دلالتها على طريقة تعرّف دلالة بعض الاستعارات أو المجازات أو الوحدات اللّغويّة المسكوكة، حيث يتمّ العبور إلى المعنى المقصود بالقول دون كلفة كبيرة. والّذي ينبغي أن نشير إليه أيضا هو أنّ الإطار الحواريّ للأمثال لا يقف عمله عند مدى توجيه دلالتها وإنّما يطبع الدلالة ذاتها بطابع حواريّ، بل إنّه يوقفنا على حدثان المعنى وتشكّله. فإذا بالتفاعل الّذي يجري بين الغوّاص والأسد والصديق يمسرح حركيّة تشكّل الدلالة. ذلك أنّ الطابع الحجاجيّ في التبادل بين الشخصيّات يجعل المثل يتّجه مرّة صوب تثبيت بعض الفرضيّات الّتي يتّخدها المعنى صيغة تشكّل ومرّة أخرى ينصرف بها صوب النفي والتعديل. ويؤكّد هذا الأمر أنّ النصّوص ذات الطابع الحواريّ الحجاجيّ أقدر من غيرها على تمثيل حركيّة تشكّل الدلالة وتجسيد الآثار السياقيّة، مادام الأثر السياقيّ يتحدّد بما تخلّفه الوحدات اللّسانيّة من آثار دلاليّة فيما يتلوها (دعم ، تعديل ، نفي). ومهما يكن من أمر علاقات التناسب الدلاليّ وما لها من دور في تشكيل السياق اللّساني وتصريف أثره في الأمثال، فإنّ العلاقات بين الوحدات تتّخذ شكلا منطقيّا من مثل علاقة الاقتضاء (دومنيك منغنو وباتريك شارودو 2008: 455) الّتي تسمح لنا بدراسة الجوار العرفانيّ.

2 -3 دور الجوار العرفاني في توجيه دلالة الأمثال

تحضر القارئ آن استقبال النصوص معطيات إدراكيّة تتّخذ صورة التمثّلات العمليّة. وتتنزل من الفهم منزلة الخلفيّة أو الذاكرة الاشتغاليّة الّتي

يمتنع على المرء أن يدرك العالم إن عدمها. أمّا العلاقة الّتي يمكن أن تعقدها تلك التمثّلات بما يتلوها من وحدات فتتوزّع بين الاقتضاء والتأكيد أو التعديل. ويعني هذا أنّ المعطى الواحد سواء أكان لسانيّا أو عرفانيّا، لا يكتسب هويّة سياقيّة ويستوفي شرط الإفادة la pertinence إلاّ إذ خلّف أثرا في الجوار الذهنيّ إن بدعم فرضيّة أو نفيّها أو تعديلها.

تعقد الصفات الّتي أسندها الراوي إلى الغوّاص علاقة اقتضاء بالنهاية الّتي آلت إليها علاقته بالأسد. يقول الراوي في وصفه" كان له رأي وأدب إلاّ أنّه كان محبّا للدّعة راغبا في الخمول مشغوفا بطلب العلم، قد انصرف إليه بجملته فليس فيه فضل لغيره يأنس بالوحدة كما يأنس غيره بالمجالسة، أحبّ يومه إليه يوم خلا فيه بفكره ونظره في كتبه" (الأسد والغوّاص، 1992: 41). إنّ ما يتحصّل لنا من هذا الشّاهد هو أنّ كلف الغواص بالعزلة يبشّر على وجه الاقتضاء واللّزوم بفشل الاتّصال المباشر بين الأسد والغواص، لأنّ الرغبة في الاتّصال عندما تكون أحاديّة الجانب، تغدو منذورة للفشل على ما قد توحي به من تواصل ظرفيّ خادع. ويعني هذا أنّ الوحدات الوصفيّة الّتي تقدّم ملامح الشخصيّات تلقي بظلالها على العلاقة بين الفواعل أي أنّها تخلّف أثرا في ما يجاورها ويتلوها. وإذا أردنا أن نسم هذا الأثر قلنا إنّه أثر اقتضاء توجبه تجربتنا في العالم. وببلوغنا المقطع القصصيّ الّذي يعرض مآل العلاقة بين الأسد والغوّاص تفعّل المعاني ذات الوجود الافتراضيّ والكامنة في العبارة كمون النّار في الحجر ويقع الالتحام بين التمثّلات والمعاني الحرفيّة. ومن ثمّ تتأكّد فرضيّات المنطلق ويكون الأثر السيّاقيّ أثرا سعيدا قيّاسا على العمل اللّغويّ السعيد. ذلك ما تؤكّده بعض أمثال "كليلة ودمنة" أو " الأسد والغوّاص" في صحبة السلطان. ولعلّ الطريف في كلّ ذلك أنّ هذه الأمثال تحضر في ذات النصّ أو الجنس الأدبيّ لتعيّن لنا المواضعة التواصليّة

الّتي نفترض على أساسها مآل العلاقة بين صاحب السيف وصاحب القلم. فقد انتهت بحبس الغوّاص بسبب كيد حسّاده وتتابعت الأمثال الّتي تدعم هذا الأثر الدلالي المنطبع في الذهن منذ الصفحات الأولى من الحكاية. يقول الراوي ناقلا الحوار بين الغوّاص وصديقه " قال له صديقه: إنّ الحكماء قد قالوا إنّ الملك كالبحر وأصحابه كالريّاح، تصرّفه كيف تصرّفت فإن هاجت هاج وإن سكنت سكن أو كالبدن الصحيح إذا كثرت عليه الأغذية الرديئة فإنّها لا تلبث أن تحيله عن الصحّة إلى السقم " (الأسد والغوّاص، 1992: ص 146) وتنتهي محنة الغوّاص أو بالأحرى تجربة السجن بعفو الأسد عنه. ولم يمنعه هذا العفو من أن يستعيد طائفة من الأمثال الّتي تثبت مخاطر صحبة السّلطان ومصداق ذلك قوله مخاطبا الأسد " وأخشى أن يكون أمري فيك كما كان أمر أبي عُبيد الله وزير المهديّ. قال: وكيف كان أمره؟" (الأسد والغوّاص، 1992: ص 176)

لا تقف لعبة الاقتضاء (دومنيك منغنو وباتريك شارودو 2008: 455) عند ملامح الغوّاص وإنّما تطال الملامح الّتي نسبها الراوي إلى الأسد في الباب الأوّل المخصّص لوصف الملك الحازم من حرص على تنفيذ أحكام الشريعة وشدّة اشتغال بمصالح رعيّته. والّذي لاحظناه هو أنّ ملامح الحزم والحرص على مصلحة الرعيّة تنبئ بنجاح الطالب في الاتّصال بموضوع طلبه مادام الحقّ لا يضيع إذا كان وراءه طالب. وكيف لا يتحقّق هذا الاتّصال والحال أنّ الطالب(سلطان) يملك الكفاية المطلوبة. أمّا رجع هذا الأثر السياقيّ فيتردّد في عدة مقاطع قصصيّة وحسبنا أن نتمثّل بالمحاورة الحجاجيّة الّتي دارت في الباب الثاني بين الغوّاص وصديقه الّذي جدّ في إقناعه بضرورة تنكّب مصاحبة الملوك. يقول الراوي ناقلا أقوال الأخ الناصح بعدم مصاحبة السلطان " وقالوا: احذر صحبة السلطان فإنّ إقباله تعب وإعراضه مذلّة وقد

قيل: أحسن ما في الأنفة الترفّع عن معايب النّاس" (الأسد والغوّاص، 1992: ص 54)و يردّ الغوّاص فيقول " إنّي أخشى أن يكون علمي حجّة عليّ. فإنّ السّعيد من استعمل نعمة اللّه عليه فيما يقرّبه إليه فتكون الفضيلة الّتي أوتيها سببا لفضيلة أكبر منها" (الأسد والغوّاص، 1992: ص 47). وتستقيم هذه المواضعة الطرازيّة العمليّة المذكروة آنفا خلفيّة نظريّة تحدّد بصفة مسبقة دلالة المحاجة إن بين الغوّاص وصديقه أو بين الغوّاص والأسد. ويظفر الملك بجوهرته النفيسة.

تكشف لنا المواضعات الطرازيّة الّتي توجه دلالة الأمثال عن دور الفرضيّات في بناء الدلالة. ولّما كانت تلك الفرضيّات مستقرّة في الذهن خارج النصّ وكانت ملازمة لضرب مخصوص من الأقوال أو بالأحرى من الأجناس الأدبيّة، جاز لنا أن نعدّها سياقا ذهنيّا للقول قياسا على السياق اللّسانيّ من حيث هو جوار لفظيّ تشكّله الوحدات اللّسانيّة الّتي تسبق القول الواحد و تتلوه.

خاتمة:

يتحصّل لديّنا من دراسة الأثر السياقيّ وأثره في توجيه دلالة الأمثال، أنّ السيّاق اللّسانيّ في كتاب "الأسد والغوّاص" تجريد مفهوميّ يتشكّل بتتابع الوحدات اللّسانيّة الّتي تنحت بتعاودها نواة دلاليّة تكون بمنزلة السمات المفيدة للشيء المدرك. ويجيء المثل حاملا لأثرها الّذي تردّد صداه البنى العامليّة.

يجري السياق اللّساني من الأمثال مجرى السبب والشبيه والنظير. تلك هي وجوه الأثر السياقي الموجّه لدلالتها. وبهذا الشّكل تقوم علاقة السيّاق بالأمثال على ضرب من التصادي والترجيع. وإذا الأثر السيّاقي ضرب من التوقّع غير البعيد وغير الخائب. فاللاحق ليس فيه إلاّ المعنى السابق. ولما

كانت دلالة الأمثال رهن الجوار اللّسانيّ والعرفانيّ والموسوعة الثقافيّة والمعطيّات الّتي تخزّنها الذاكرة القريبة المدى آن متابعة الوحدات اللّسانيّة، بطل السياق أن يكون معطى جاهزا شأنه في هذه الحيويّة شأن المعنى الّذي يبنى عبر توقّع يخيب مرّة ويتحقّق مرّة أخرى بفضل الترجيع والإحالة والتضمين.

خلاصة القول إنّ التلازم بين التأويل والسياق، يعني التلازم بين الفهم وما يعلمه القارئ عن أدبه ولغته والعالم وكلّ ما يتّصل بالجوار العرفانيّ. وهكذا يمتنع على السياق أن يكون مجرّد جوار لسانيّ.

ثبت المصادر والمراجع

1) ابن المقفع، عبد الله، (1980)، كليلة ودمنة، ط11، دار المشرق المطبعة الكاثوليكية بيروت لبنان

2) ابن خلدون، عبد الرّحمن(1984)، المقدّمة، ج2، الدار التونسيّة للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر

3) ابن رشد أبو الوليد (1983)، فصل المقال فيما بين الحكمة والشّريعة من الاتّصال، ط2، دراسة وتحقيق محمّد عمارة، دار المعارف، القاهرة

4) الاستراباذي، رضي الدين (1978)، شرح الرضيّ على الكافية، تحقيق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس

5) باديس نرجس

- (2008) دلالة الحضور في الإحالة المقاميّة، المشيرات المقامية نموذجا، أعمال ندوة الإحالة في ضوء المقاربات اللسانيّة والتداوليّة، مسكيلياني للنشر والتوزيع تونس، الطبعة الأولى.

- (2009) المشيرات المقاميّة في اللّغة العربيّة، مركز النشر الجامعي، تونس.

باسل حاتم (1998)، الخطاب والمترجم، منشورات جامعة الملك سعود

6) الحمويّ الرّومي، شهاب الدّين ياقوت (1993)، معجم الأدباء. إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. تحقيق د. إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي. بيروت ـ لبنان.

7) السيد، رضوان (محقق)، (1992)، الأسد والغوّاص، حكاية رمزيّة من القرن الخامس الهجريّ، ط2، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت.

8) الشّاوش محمّد. أصول تحليل الخطاب في النظريّة النحويّة العربيّة، تأسيس تحو النصّ. جامعة منّوبة بالاشتراك مع المؤسّسة العربيّة للتوزيع، تونس 2011ج 2.

9) العسكري، أبو هلال: الأوائل. منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، الطّبعة الأولى، 1997.

10) محمد علي التهانوي، محمد علي، (1978) موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تقديم وإشراف ومراجعة د. رفيق العجم سلسلة موسوعات المصطلحات العربيّة والإسلاميّة ، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت

1) Armengaud. F(1985), La pragmatique, , P.U.f, Que sais-je, Paris.
2) Bloomfield Leonard (1970) , Le langage, Paris, payot
3) Bourdieu,P,(1980), Le Sens pratique, Paris, Minuit
4) Brankard. J. P (1985), *le fonctionnement des discours* . Neuchate Delachaux et Niestle.
5) Goldman Lucien(1976), Pour une sociologie du roman, Ed, Gallimard.
6) Grodin Jean (1993), L' Horizon herméneutique de la pensée contemporaine- Paris : Vrin.
7) Maingueneau Dominique (1993), le Contexte de l'œuvre littéraire littéraire, Enonciation, écrivain, société. DUNOD, Paris.
8) Martinet André (1985), syntaxe générale , Paris , Colin .
9) Moschler. J (1985), Argumentation et conversation, Paris, Hatier.
10) Orecchioni Catherine Kerbrat (1980) ,L'énonciation de la subjectivité dans le language ; Ed ; Armand Colin , Paris.

هوامش:

1) الأسد والغوّاص، حكاية رمزيّة من القرن الخامس الهجريّ، تحقيق رضوان السيّد، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، الطبعة الثانية 1992. ص 47. كتبت هذه الحكاية في أواخر القرن الخامس الهجريّ زمن دخول السلاجقة بغداد وتحديدا في منتصف هذا القرن بعد ما يزيد على القرن من السيطرة البويهيّة. أمّا الغواص فرمز للحكيم العارف بشؤون الحكم. ولقد خاض تجربة مع الأسد توزّعت على مرحلتين، الأولى كان فيها ضحيّة الحاسدين من خاصّة السلطان. أمّا الثانية فالتزم فيها بالبعد دون أن ينقطع عن نصيحة الملك. وتدلّ هذه التجربة على رؤية سياسيّة تؤكّد على عدم إمكانيّة التماهي بين السياسة والشريعة، دون أن يعني ذلك القطيعة وكأنّها في كلّ ذلك تستخلص العبرة من تجربة نظام الملك. ولعلّ خصوصية هذه العلاقة بين السياسة والشريعة هي الّتي تميّز مثل الأسد و الغوّاص من كتاب ' كليلة ودمنة' و'رسالة النمر والثعلب' إذ قتل دمنة في نهاية مثل الأسد والثور وانتهى الثعلب متسوّلا على أبواب الملوك.

2) انظر دومنيك منغنو وباتريك شارودو. معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمّود، المركز الوطني للترجمة تونس دار سيناسنترا 2008 . وقد جاء فيه، الاستلزام Implication " علاقة منطقيّة بين قضيتين ق و ك ترسم بواسطة الرابط ←. إن الاستلزام " ق

←ك " صادق إذا وإذا فقط "لا ق ولا ك " صادق" ص 295. أمّا " في اللّسانيات على غرار أ - ديكرو (1972) الاقتضاء Présupposition هو عمل أن نقتضي والمقتضيات أنماط خاصّة من المحتويات المرسومة في الملفوظات وللمقتضيات الخصائص الآتية:

- تناسب حقائق يفترض أنّ للمرسل علما بها سابقا (بديهيات مشتركة أو وقائع خاصّة ترجع إلى معارفه السالفة) وتكوّن ضربا من الأرضيّة تبني عليها المنطوقات(الّتي من شأنها على العكس أن تناسب معلومات جديدة) وتضمن اتّساق الخطاب في الحين الّذي تتعهّد فيه الملفوظات بتقديمه" وبهذه الصفة يتكفّل بها ضرب من الصوت الجماعي وتتعلّق حسب أ - ديكرو (1984: 231 - 233) بتعدّد الأصوات التلفظيّة.
- لا تتأثّر بالنفي ولا بالاستفهام
- لا يمكنها مبدئيا أن تبطل ولا أن تستعمل قاعدة للتسلسل. ص455

3) تختلف دلالة السياق باختلاف المصادرات النظريّة فالنحو التحويليّ يستند إليه في تمييز القواعد النحويّة المشروطة بسياق من القواعد النحويّة المستقلّة عنه. من ذلك أنّ النحاة القدامى عوّل عليه في تمييز الاستئناف من العطف وحسبنا أن نستشهد ببعض النصائح الموجهة إلى القضاة " على الحكم المأتي يوما إلى القضاء ألاّ يجورَ ويعدلُ"

يقتضينا الإنصاف أن ننوّه بالدور الّذي منحه النحاة العرب القدامي على خلاف اللّسانيين المحدثين للمقام. ومن ذلك تعويلهم عليه

4) في تمييز الاستئناف من العطف وحسبنا أن نستشهد ببعض الأمثلة " على الحكم المأتي يوما إلى القضاء ألاّ يجورَ ويعدلُ"...

5) يذهب Aristote, Rhétorique, (1991) livre I, chapitre II ,1356 a,3(traduction Charles -Emile Rulle, revue par Patricia Vanhemelryck),Paris, le livre de parole,p83 إلى أنّ كلّ خطاب يتكوّن من الأقنوم التالي : اللوغوس Logos (القول من حيث هو فكر ومعقوليّة) والباتوس Pathos (القول من حيث هو انفعال) والإيتوس Ethos وهو الصورة الّتي يروم الخطيب أن يرسّخها عن نفسه من خلال طريقته في التعبير والإيتوس هو من صميم التلفظ لا الملفوظ وهو الّذي يكسو الذات الّتي تتحمل مسؤولية الرواية اللّحم والعظم لأن الخطيب لا يقول أن سيد شريف بل يقولها بطريقته في التعبير. ينشد النصّ دائما إلى ذات تتحمّل مسؤولية القول وتختلف عن الكاتب الحقيقي للأثر إذا الأمر يتعلّق بالصّورة المتمثلة عن المتلفظ (يتحمّل مسؤولية التلفظ) والّتي تقودنا بدورها للصورة المتمثلة عن المتلفظ له انطلاقا من مؤشرات نصيّة. ويذهب مانقنو أيضا إلى أنّه يمكن للأثر الأدبيّ أن يضفي الشرعية على سينوغرافيته باستحضار بعض اللّوحات التلفظيّة لمحاكاتها. (1993: ص 125).

Sommaire

Signification des fables entre l'effet du contexte linguistique et de situation

Nous voudrions examiner dans cet article l'effet que le contexte peut avoir sur la signification. Nous parlerons de l'idée selon laquelle, lire une parabole nécessiterait de la rapporter aux effets contextuels syntagmatiques et paradigmatiques. Nous allons notamment aborder la question de signification comme conséquence qui est logiquement tirée non seulement de l'environnement textuelle mais aussi de l'acte énonciatif en plus de champs littéraire.

Mots clés :
- Contexte - Effet contextuel- cotexte- conditionnement sémantique- vocation énonciative – Environnement cognitif.